

محطات جغرافية - فكرية في حياة رثيف خوري*

بقلم سماح ادريس

وما إن بَلَغَ الحادية عشرة من عمره، حتى أُرْسِلَهُ أبوه إلى مدرسة برمانا العالية، مُتَّدى طُلابِ المتنِّ والجبلِ الميسورين، ومنها نالَ شهادةَ (الهاي سكول)، ثم التحقَ بالجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٢٨ طالباً في الأدب العربي وتاريخ الآداب الشرقية، وتخرَّجَ منها سنة ١٩٣٢ بدرجة بكالوريوس في الآداب. والأرجح أن خوري عقدَ العزمَ على مواصلة الدراسة لنيلِ شهادة الماجستير بدليل الأطروحة التي بدأ بكتابتها عن الجاحظ بإشراف الدكتور قسطنطين زريق، لكنَّهُ لم يُتَمِّها.

٢ - الجامعة الأميركية في بيروت

كانت هذه الجامعة - وما تزال - ميدانَ صراعِ فكريٍّ مَلِيءٍ بالزَّخْمِ، يشتركُ فيه الطُّلابُ والأساتذة من مختلفِ الاتجاهاتِ والمشاربِ السياسيَّة والأيدولوجيَّة ومن شتى الطوائفِ والمذاهبِ والجنسيَّاتِ. ويبدو أن رثيفاً قد خَصَّ السياسة بقدرٍ كبيرٍ من وقته، فرَسَبَ في عامه الأوَّل رسوباً ذريعاً. وقد رُوِيَ أن أباه زَمَجَرَ في وجهه غاضباً وخيَّره بينَ خيارين لا ثالثَ لهما: إمَّا الاجتهادُ في التحصيل أو... حمل الرُّفْسِ^(٤). فانكبَّ رثيف على الكتب واستطاع أن ينجحَ في صفِّه. لكنَّ هذا النَّجاح الأكاديمي لم يدفعَ به إلى الانزواءِ عن حلبةِ السياسة والنقاشِ الفكري، بل إنَّ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذه الحلبة قد مرَّسته بالجدلِ السياسي وعرَّفته إلى مبادئ الماركسيَّة^(٥).

في سنة ١٩٣٣، سافرَ رثيف إلى سوريا مدرَّساً للأدب

سَبَقَ لمطانيوس يوسف طوق أن كَتَبَ فصلاً جامعاً حول حياة رثيف خوري^(١)، استقى أكثرَ معلوماته فيه من مقابلاتٍ أجراها مع مُقَرَّبين من رثيف، الأمر الذي لم يتأتَّ لي بالدرجة نفسها بسبب كتابة القسم الأكبر من هذه الدراسة في بلادِ الاغترابِ أولاً، ولصعوبة التنقلِ بين «شطري» العاصمة بيروت ثانياً. إلا أن هذا الفصلَ لا يهدفُ إلى عرضِ حياة رثيف بدقائقها وتفصيلها، وإنما يرمي إلى رسمِ ما هو - في تصوُّري الخاص - محطاتٌ محدَّدة تُساعدنا على فهمِ موقفِ أبي نجم من التراثِ العربيِّ.

١ - السنديانة

وُلد رثيف في قرية نايبة المتنيَّة سنة ١٩١٢، من عائلةٍ أرثوذكسيَّة ميسورة الحال. وكان والده نجم تاجر قمح، لكنَّهُ كان أيضاً معلماً تحت سنديانةٍ لأجيالٍ من أهالي هذه القرية لا يزالُ بعضهم يذكُّره بالخير الكثير. وعلى يد هذا الأستاذ الحاصلِ على شهادة (الهاي سكول)، تتلمذَ رثيف الصغير في نعومة أظفاره، وعنه أخذَ مبادئ الانكليزية والعربيَّة، وقرأ معه الريحاني^(٢) وجبران^(٣) جنباً إلى جنب مع المعلقاتِ وأبي الطيب المتنيِّ وغير ذلك. فَمَّا حُبُّ الشُّعْرِ والنثر العربيين في نفسِ رثيف الطفل، وامتزجَ برائحةِ السنديانِ والترابِ والبُسطاءِ من النَّاسِ.

(* الفصل الأول من كتاب «رثيف خوري وتراث العرب» الذي يصدر هذا الشهر عن دار الآداب - بيروت.

العربي في طرطوس. وبعد عامين، انتقل إلى فلسطين مدرّساً كذلك لمادتي الأدب والترجمة والتعريب في مدرسة المطران غوبات.

٣ - فلسطين

عام ١٩٣٦ كانت فلسطين تشهد ما يُشبه الاعصار: فقد أُضربت المُدن والقُرى ستة أشهر اعتراضاً على الانتداب البريطاني وما اعتُبر تواطؤاً منه مع المنظمات الصهيونية لإنشاء دولة «إسرائيل». وقد استنفر كل طاقاته للتعبير عن تضامنه مع أهل البلاد: فإلى جانب مشاركته في تنظيم التظاهرات والاضرابات التي سبقت ثورة ١٩٣٦، صاغ بالاشتراك مع بعض المثقفين العرب^(٦) مطالب «الاضراب الكبير»، وتلخّص في وقف الهجرة الصهيونية ووقف بيع الأراضي وإقامة حكومة وطنية وتجريد الصهيونيين من الأسلحة^(٧)، كما كان من المدعوين إلى مُدن كالخليل ونابلس للخطبة في الناس ضد بريطانيا والمُتعاونين معها.

إلا أن النشاط السياسي الأبرز الذي توجّه به رثيف خوري موافقه العمليّة من قضية فلسطين كان تمثيله الشَّبَاب العربيّ في مؤتمر الشبيبة العالمي الثاني الذي عُقد في صَاحِيَة من ضواحي نيويورك سنة ١٩٣٨. ففي هذا المؤتمر، خطب رثيف مُدافعاً عن حقّ الفلسطينيين في تقرير مصيرهم، ومُهاجماً السلطات الانتدابية. وقد دَفَعَهُ حماسه إلى مُقارعة الصهاينة في عُقر دارهم. فقد وَفَقَ خطيباً أمام جماعة من اليهود مبيّناً لهم أن النازية والصهيونية تعاونتا على اليهود، بل إن «النازية عصا الارهاب التي أُجنت جماهير من اليهود عن أوطانهم وسلّمَتهم إلى الوكالة الصهيونية بضاعة بشرية تُهجّرُها إلى فلسطين»^(٨).

وكانت حصيلة ذلك كله أن شنت الصحف الأميركية والصهيونية عليه حملات النقد والتجريح، وقرّر المندوب السامي البريطاني منع رثيف من دخول فلسطين. فعاد إلى بيروت. لكن الأوامر البريطانية لاحقته، فصَدَرَ قرار سنة ١٩٤٠ بِفُضْله عن مدرسة الانترناشونال كولدج في بيروت التي كان رثيف قد بدأ التدريس فيها منذ بداية العام السابق.

ومن وحي فلسطين، أَلَفَ رثيف خوري كتابين رئيسين هما **جهاذ فلسطين**^(٩) وثورة **بيدبا**^(١٠)، كما دفع - خلال فترة إقامته في فلسطين (أي حتى سنة ١٩٣٨) - بمقالات أدبية إلى

مجلة **الطليل**^(١١) منذ بداية تأسيسها (١٩٣٥) إلى جانب أفصوَصَتَيْن **بِئْس** من معاشية المأساة الفلسطينية^(١٢) كتبهما بعد فترة قصيرة على طرده وسفره إلى لبنان وسوريا.

٤ - سوريا

لم تكن تلك المرّة الأولى التي يعيش فيها رثيف في سوريا، فقد سبق له أن مارس التعليم لبضع سنين في كلية الشرق في طرطوس خلال الثلاثينات. بيد أن نشاطه سرعان ما اتسع ليتجاوز التعليم، فنحن نعلم أنه في عام ١٩٤١ أصدر جريدة الدفاع^(١٣) لتكون - كما يتضح من شعارها ومن عددها الأوّل - «جريدة يومية سياسية» تُناضل من أجل «الديموقراطية الصحيحة» في وجه «خطر النازية المستفحل» ومن أجل تكوين جبهة عالمية لفرنسا الحرة مكان عزيز فيها. على أن المجلة - في أعدادها الستة - تضم إلى جانب المواقف السياسية «المباشرة» مقالات أدبية. وقد كتب رثيف على صفحاتها كلمات في الفلسفة والأدب^(١٤).

٥ - موسكو

في عام ١٩٤٧، دُعي رثيف إلى زيارة الاتحاد السوفياتي ضمن وفد التعاون الثقافي بين لبنان والاتحاد السوفياتي، فرار طشقند وموسكو ولينينغراد وأعجب بالمستوى الحضاري والثقافي الذي توصل إليه «بلد لينين» ودون انطباعاته الايجابية عن هذه الزيارة في كُتَيْب هو الثورة الروسية: قصة مولد حضارة جديدة^(١٥). لقد خلقت ثورة أكتوبر - في رأي رثيف - إنساناً سوفياتياً جديداً «صحيح الجسم، قوي المعنويات، وافر الثقافة، متفتح الذهن، متفائلاً بالمستقبل، يكره الخمول والقنوط ويتحلّى بروح التعاون ولا يكتبر لثروة فردية أو لمطمح شخصي...»^(١٦). والواقع أن تقدير رثيف للثورة الاشتراكية قديم، فقد عبّر عنه من قبل في مجلة **الطليلة**^(١٧) وفي كتابه **حقوق الإنسان**^(١٨) حيث يستعرض بعض بُنود الدستور السوفياتي فيسفه القائلين إن الاشتراكية ضد الملكية الصغيرة ويؤكد أن الاشتراكية تعمل على تعزيز هذه الملكية عند الفلاح الصغير الفقير وذلك بتكثير إنتاجه وزيادة أرضه ومساعدته على تجويد الزراعة وتنظيم تعاونيه مع غيره «وأنها بالفعل تريد أن تقضي على ملكية الاقطاعي قضاء مبرماً»^(١٩). ويركز في كتابه كذلك على «الديموقراطية» التي تتمتع بها جمهوريات الاتحاد السوفياتي ومواطنوها على

مختلف انتماءاتهم وطوائفهم، وهي ديموقراطية غير تلك التي تُجاهرُ بها «الدول البورجوازية» لأن هذه الأخيرة - على حد قول رثيف - «لا تؤمّن الجانب الاقتصادي لممارسة حقوق هذه الديموقراطية»^(٢٠).

وقد بقيت دعوة رثيف خوري إلى تعزيز الصداقة بين «الشعوب العربية»^(٢١) و«بلد لينين» ماثوثة في كلِّ مواقفه السياسية والفكرية (حتى في قمة تأزم علاقات رثيف بالاتحاد السوفياتي وبالجزب الشيوعي اللبناني) شرط أن تكون هذه الصداقة «صداقة وطن مستقل لوطن مستقل، وشعب حرّ لشعب حرّ، وجماهير عاملة لجماهير عاملة». صداقة لا تعني تبعيةً منا لأحد.. أو مأموريةً [لأحد علينا]^(٢٢).

لكنّ حدثين بارزين عرّضا لرثيف وأفسدا علاقته - بالاتحاد السوفيات أولاً، وبالأحزاب الشيوعية العربية ثانياً، وأعني بذلك قرار تقسيم فلسطين و«التقارب» اليوغوسلافي - الأميركي.

فمن المعروف أن الاتحاد السوفياتي تبنى قرار تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ إلى دولتين يهودية وعربية، وأيدت بعض الأحزاب «الشيوعية» العربية آنذاك هذا الموقف^(٢٣). فتوترت الصّلات بين «القوميين العرب» و«الشيوعيين». أما رثيف، فقد ألفتناه حتى في قمة تمجيده للاتحاد السوفياتي في كتيبه عن الثورة الروسية - ينتقد موافقة موسكو على التقسيم، وإن كانت قد أدلت بدلولها بين الآخرين كما زعم. لكنه ما لبث أن عدّ هذه الموافقة وصمة عارٍ لن تمحى بسهولة.

بيد أن الصدام الحقيقي بين «الشيوعيين» ورثيف قد توجّ بتأييد الأخير ليوغوسلافيا التي قبلت معونة أميركية لإنعاش الاقتصاد اليوغوسلافي كان ستالين حرّمها منها بدعوى حاجة المنشآت الكيماوية السوفياتية للمعونة. وقد تبع بعض الشيوعيين موسكو في حملتها على المارشال تيتو واتهامها إياه بالتقارب مع «الامبريالية الأميركية». ولما كان رثيف يؤيد بناء يوغوسلافيا الذاتي ويعارض تدخل السوفيات في شؤون دولة تبغي تقرير مصيرها بنفسها، فقد شنّ الشيوعيون حملة عنيفة ضده، وضدّ التجمّع الذي شارك في تأسيسه تحت اسم «إخوان عمر فاخوري»^(٢٤)، فسمّوا التجمّع تجمّعاً لـ «إخوان عمر فاخوري»، ورموا رثيفاً «بالتروتسكية» حيناً و«بالتبعية» حيناً آخر، ولم يتورّع بعضهم عن اتهامه بالعمالة لأميركا^(٢٥).

في هذه الفترة من عُمر الخلاف بين رثيف ورفاق الأمس، اتّصل بجريدتي التلغراف^(٢٦) والطيار^(٢٧). ومنذ عام ١٩٥٣ بدأ بالكتابة المنتظمة في مجلة الآداب اللبنانية^(٢٨) لكنّه يبدو أن الشيوعيين أحسّوا بخطئهم في تعاملهم معه^(٢٩)، فاستمالوه، وعاد إلى الكتابة في الصحافة كالثقافة الوطنية^(٣٠) والأخبار^(٣١) والنداء^(٣٢) وحتى الطريق^(٣٣) (بعد انقطاع امتدّ عشرة أعوام).

٦ - مصر

«الشرف لك يا مصر! والشكر لك يا مصر! لأول مرة منذ عصر في التاريخ كاد ينساه التاريخ، مكنت العربي، كلَّ عربي، أن يرفع جبينه عن التراب إلى الشمس ويحدّق فيها بعين لا يرف لها جفن»^(٣٤). كانت مصر سنة ١٩٥٦ تؤمّم قناة السويس، فتشن بريطانيا وفرنسا و«إسرائيل» هجوماً ثلاثياً، وتصمد بورسعيد «وتفاجيء المستعمرين»^(٣٥) بقبضتها الثائرة، ويقف جمال عبد الناصر صارخاً في وجوههم «ارفعوا أيديكم [عن مصر] وإلا كسرتها! ولم يكن مازحاً!»^(٣٦).

انتصار بورسعيد شكّل بالنسبة لرثيف خوري حدثاً أعظم من مجرد الظفر بقناة تملكها مصر. كان - بكلماته - «برهاناً على أن الأمة العربية والقومية العربية هي اليوم غيرها في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. هي اليوم كائن يحيا وينمو وتثبت خطاه»^(٣٧).

وعظّم إعجاب رثيف بمصر. وعندما ذهب إليها في أواسط نيسان ١٩٥٧^(٣٨)، بدأ يستطلع أحوالها: فقد أراد أن يتشبت من حقيقة ما نمي إليه حول التمييز الديني بين المصريين أولاً، وانجراف حكّامها في تيار الشيوعية ثانياً، واشتداد المعارضة الشعبية لعبد الناصر ثالثاً^(٣٩). فاكشفت أن لا صحة لهذه المزاعم مطلقاً: فهي هو يُدخّن في شهر رمضان دون أن يحدّجه أحد بنظرة إنكار؛ وها هو يعجز عن محادثة قبطني يشكو سوء معاملته؛ ثمّ إنه ليس في مصر دليل على أن حكّامها يسرون في تيار الشيوعية ولكن ثمة «تمسكاً بصداقة» البلدان الاشتراكية تفيده مصر وتقويها؛ وأخيراً، رأى رثيف من خلال المعاينة أن حكّام مصر الجدد لم يكونوا في يومٍ أقرب إلى قلب الشعب المصري منهم اليوم^(٤٠).

مصرُ الهبة القومية جعلت رثيفاً أكثر إيماناً بالفكر العروبي التقدمي. صحيح أنه لم يفقد إيمانه بالماركسية، لكنّه صار

يهجس «بالسيادة الوطنية» و«الوحدة العربية» و«بات يُجاهرُ
«بأننا كعرب لا نريد أن نكون مرتعاً للقوة الشيوعية ترتع فيه،
ولكننا في الآن نفسه نأبى أن نكون مرتعاً ترتع فيه دولُ
الاستعمار الغربي»^(٤١). إن هذه الهبة القومية لم تكن درساً
«للمستعمرين الغربيين» فحسب، بل كانت درساً للسوفيات
أيضاً: «إن الأمة العربية والقومية العربية ليست لفظاً يُقال ولا
هي (مجرد حُرْتَقَة بورجوازية)^(٤٢) لمجرد أنها ليست
بروليتارية ولا شيوعية!»^(٤٣).

* * *

في فلسطين وسوريا وموسكو ومصر، لم ينسَ رثيف موطن

الحواشي:

- (١) راجع الفصل الأول من رسالة طوق التي أعدها لنيل شهادة الكفاءة في التعليم الثانوي، الجامعة اللبنانية، حزيران ١٩٧١، وعنوانها: رثيف خوري، سيرته وأدبه.
- (٢) أمين الريحاني (١٨٧٦ - ١٩٤٠): كاتبٌ لبناني من كبار المحدثين في العربية والانكليزية. ولد في الفريكة (من قرى لبنان) وتعلّم في مدرسة ابتدائية قبل أن يرحل إلى أميركا وهو في الحادية عشرة مع عمّ له. ثم لحق بهما أبوه، واشتغل الجميع بالتجارة في نيويورك. عاد إلى لبنان سنة ١٩٩٨، ثم تردّد بين بلاد الشام وأميركا، وزار نجداً والحجاز واليمن وفلسطين وغيرها من البلدان. تميّز كتاباته بالنقد الاجتماعي والدعوة إلى التحرّر من سلطة رجال الدين والشغف بوحدة العرب. من مؤلفاته: الريحانيات؛ ملوك العرب، قلب العراق، الثورة الفرنسية، وقصة خالد (الاعلام للزركلي).
- (٣) جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) كاتبٌ شاعرٌ فنان من أدباء العرب في المهجر الأميركي. تميّز مؤلفاته بنفس شعري عذب، وبالحملة على الإقطاعيين السياسيين والدينيين والثورة على التقاليد الجائرة بحق المرأة والمعموز (في كتاباته الأولى خاصة) وبنزعة عرفانية صوفية (في كتاباته الأخيرة بشكل بارز). وأبرز هذه المؤلفات: دمعة وابتسامة، عرائس المروج؛ الأرواح المتمردة؛ الأجنحة المتكسرة؛ المجنون؛ والنبى.
- (٤) ميشال سليمان: مجلة الفكر الجديد ١ (١٩٦٨): ٢٥.
- (٥) يخبرنا طوق أن أحد أساتذة التاريخ الأميركيين - ويرجّح أن اسمه Soltow - كان من الذين وجهوا خوري إلى الاهتمام بالثورة البلشفية والنظرية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تطرحها.
- (٦) نذكر منهم الدكتور خليل البديري، أحد أعضاء «جمعية مكافحة الاستعمار» التي اتخذت من لندن مركزاً لها، وهو بالنسبة من كان يزود رثيفاً بنشرات يسارية تصدّر في الخارج (راجع رسالة طوق ص ٧)؛ ورجا حوراني، رئيس مجلة الطليعة اليسارية لسنتين عدة.
- (٧) رثيف خوري: جهاد فلسطين: ١٣٠ من أعمال رثيف خوري المختارة التي قدّم لها الياس شاكرو. واسم هذه الأعمال ثورة الفتى العربي، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٤.
- (٨) راجع كتاب مخايل عون: الرواد في الحقيقة اللبنانية، دار الباحث ودار النصر، بيروت، ١٩٨٤: ١٤١ - ١٤٢.
- (٩) صدر كتاب جهاد فلسطين سنة ١٩٣٦ بتوقيع الفتى العربي. ويظهر لقراره

السنيديانة الأولى، لبنان. وفي كل منعطفاته الفكرية والأيدولوجية، «ظلّ لبنان نُقْطَةً البركار في مدار تفكيره السياسي والاجتماعي»^(٤٤). لذلك لا يصح اعتماد لبنان «محطّة» من محطّات رثيف الجغرافية - الفكرية، بل هو الأرض التي زرّع فيها رثيف نتاج عقله وقلبه الكبيرين، عبر المنابر الخطابية، أو المجلّات والجرائد اللبنانية المتعددة، أو من خلف طاولة التعليم في الصفوف التكميلية والثانوية. وسأدرُس لاحقاً التزام رثيف اللبناني العميق الذي لا يتعارض مع الهوية العربية أو الانتماء الإنساني العام، بل هو في مركز القلب منها.

أنه يتضمن عرضاً لأطوار الإضراب الكبير من مرحلة العفوية حتى مرحلة الثورة المسلحة. وهو يركّز على دحض التهمة عن حركة الإضراب من أنها تتلقى الدعم من يد أجنبية (إيطاليا)، وينقل بالوقائع والأرقام أبناء عن وحشية الانكليز بحق الشعب الفلسطيني وأنهم، والحركة الصهيونية، حلفاء ضد هذا الشعب. ثم ينتقل رثيف إلى توعية العرب إلى حقيقة أن الكيان الصهيوني - في حد ذاته وفي كونه قديماً للاستعمار البريطاني - يشكل خطراً على «رؤوس ساير الأقطار العربية عند أول تمخضها بحركة عداية» مستشهداً في سبيل إثبات ذلك بقول لحاكم انكليزي ولجريدة إنكليزية بصريحان بذلك. وفي الختام، يدعو كل الأقطار العربية إلى التوحيد ونبذ الانفصال فيما بينها، ولا يستثني في ذلك «الأغنياء الطيبين» بل «ملوكنا وأمرأتنا» الذين علينا «أن نحرض على إفهامهم أن مستقبلهم وكرامتهم في أن يتعاونوا معنا لا أن ينكروننا». والكتاب مضمّن في ثورة الفتى العربي. ١٢٣ - ١٥٢.

(١٠) ثورة يتبدأ، مسرحية شعرية في سبعة فصول، كتب مقدمتها توفيق يوسف عواد، وصدرت الطبعة الأولى منها سنة ١٩٣٦ عن منشورات مجلة الطليعة. وسنلم لاحقاً بهذه المسرحية لكونها مستقاة من التراث العربي، وتحديدًا من كليلة ودمنة لابن المقفع. والكتاب مضمّن في ثورة الفتى: ٢٣ - ٨١.

(١١) مجلة الطليعة: مجلة شيوعية «طليعية» لعبت دوراً رائداً في مسار النقد الماركسي وخاصة في مجالات الأدب والاقتصاد والاجتماع كما تشهد على ذلك مقالات ماري عجمي ورثيف خوري وجورج حنا وسليم خياطة ونجاتي صدي وغيرهم. بدأت بالصدور في آب سنة ١٩٣٥ «مجلة اسبوعية تبحث في الأدب والاجتماع»، بحرّها فؤاد الشايب بالاشتراك مع كامل عياد وصلاح الدين المحاييري وميشال علق (الذي أصبح فيما بعد منظر حزب البعث العربي الاشتراكي). ويطلق على خطتها الفكري هاجس الديمقراطية ومقاومة الفاشستية، بتأثر واضح بالمفكرين الفرنسيين وعلى رأسهم هنري باربوس واندريه جيد اللذين طالما اقتبحت الطليعة بمقتطفات من أقوالهما في المساواة ونقد رجال الدين. فيما بعد، تحولت الطليعة إلى مجلة تصدر مرة كل شهرين، فغزرت مادتها وتوسعت موضوعاتها وبرز اهتمام خاص من قبلها بقضايا الشعر العربي والتراث عامة، ومن منطلقات مادية (ماركسية) جديدة على عالم النقد العربي آنذاك، وبدأت تُفرد صفحات خاصة لأعلام الفكر العربي دعتها

الإنسانية. لقد استنكر الرأي العام العربي مشروع تقسيم فلسطين واعلن رفضه رفضاً تاماً لأنه أفضع مشروع استعماري يُمكن أن يتبلى به الشرق العربي . . .

لكنّ الاتحاد السوفياتي، وعلى لسان غروميكو، أيّد في ١٤/٥/١٩٤٧ أمام اللجنة السياسية في الأمم المتحدة قرار التقسيم قائلاً: «إن فلسطين وطن قومي للعرب واليهود معاً، ولا يجوز أن نمنحها لطرف واحد». والاتحاد السوفياتي يرى أن أفضل الحلول هو أن تُعطي الطرفين حقوقاً متساوية في دولة واحدة يحكمها الطرفان حكماً مزدوجاً. فإذا تعذر ذلك، فإننا نجد الحل في تقسيم فلسطين إلى دولتين: عربية ويهودية. . . . وفي مصرحاً أنه «من حق اليهود أن يبنوا هناك دولة ديمقراطية مستقلة تغدو نموذجاً للمؤمنين بالديمقراطية في المنطقة».

وربما كان هذا ما دَفَع بالجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني سنة ١٩٥٣ إلى تبني «صحة موقف الاتحاد السوفياتي» رغم «المقاومات التي لقيتها هذه الخطة من بعض العناصر المسؤولة في الحزب» (في إشارة إلى فرج الله الحلوزعيم الحزب الشيوعي اللبناني الذي عارض موقف خالد بكداش). أما التسويغ الذي اعطاه الحزب لموافقتهم على التقسيم فهو أن قيام دولتين مستقلتين واستتباب السلام في فلسطين هما «أحسن وسيلة لأجل التعجيل في تعميق التفريق الطبقي وتعميق الهوة بين العمال والجماهير اليهودية من جهة، والبورجوازية الصهيونية من جهة أخرى. . . .» (راجع كتاب جورج خيرالله: موقف الحزب الشيوعي من المسألة الفلسطينية).

(٢٤) عمر فاخوري (١٨٩٦ - ١٩٤٦) كاتب رصين الأسلوب ملتزم بمبادئ الاشتراكية. وُلِد في بيروت وتعلّم بها، ثم سافر إلى باريس حيث درس الحقوق. اختير عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، ثم تولى إدارة قسم الأدب العربي في إذاعة الشرق ببيروت. من مؤلفاته: السبب المرصود؛ الفصول الأربعة؛ الحقيقة اللبنانية؛ وأديب في السوق. أما «إخوان عمر فاخوري» فهم أميلي فارس إبراهيم وموريس كامل ورثيف خوري وقدري قلعجي وهاشم الأمين. (والجدير بالذكر أن العضوين الآخرين (على الأقل) كانا من بين الشيوعيين السابقين الذين رفضوا قرار التقسيم). ويبدو من تسمية التجمع بـ «إخوان عمر فاخوري» مدى حرص الأشخاص المذكورين على إظهار أمانتهم للأفكار اليسارية والعروبية التي كان يُنْفِخ عنها عمر فاخوري مرشح الشيوعيين أنفسهم للانتخابات النيابية.

(٢٥) راجع مقال رضوان الشّهال: «إنه اليقين! أما الظنُّ فغير وارد!» الطريق ٣ (١٩٥٠): ١١ - ١٤ وفيه نعتُ على رسم كاريكاتوري يُصوّر «الخوّان» (أو الإخوان) معلقين بخيوط تُمسكها قبضة ذات أظافر حادة وشعر نافر يرتدي صاحبها بذلة مدموغة الكَمّ بشعار الدولار (وربما كان الشّهال نفسه هو راسم هذا الكاريكاتور «المؤذي»!) كذلك راجع مقال وصفي البني في العدد نفسه «وهؤلاء اختاروا الحب!» وفيه يتهم البني رثيفاً بحبّه الأقوى للدولار، في إشارة إلى رواية رثيف التراثية الطويلة الحب أقوى التي سألر لها صفحات خاصة في مرحلة لاحقة من هذه الرسالة.

(٢٦) التلغراف: جريدة لبنانية أسسها نسيب المتني سنة ١٩٣٠.

(٢٧) الطيّار: جريدة لبنانية تأسست سنة ١٩٣٨ وصاحبها توفيق المتني. وقد اتصل رثيف بها سنة ١٩٤٨.

(٢٨) الآداب: مجلة لبنانية «تعنى بشؤون الفكر»، صاحبها ورئيس تحريرها الدكتور سهيل ادريس. صدرت سنة ١٩٥٣ عن دار العلم للملايين، وما لبث إدريس أن استقل بها بعد سنوات قليلة. تتميز بنضها القومي العربي (التأصري بشكل خاص)، وبوقوفها بصلاصة ضدّ مشاريع الانفصال والانزعال. كذلك تحفل الآداب بالمواقف المؤيدة للقضايا العربية وفي طليعتها قضية استقلال الجزائر، ونضال شعب فلسطين، وكفاح «الحركة الوطنية اللبنانية» و«جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية». على أنها تتميز عن

«صفحات خالدة لكبار أحرار الفكر العربي» وهدفها في ذلك الكشف عن مكامين «التفكير التقدمي» في الفكر على نحو ما تبلور مع كتاب أمثال أديب أسحق وأمين الريحاني ومصطفى كامل وعبدالرحمن الكواكبي. وقد كتب رثيف خوري في هذه المجلة الكثير من المقالات تجد عناوينها في مصادر الدراسة ومراجعتها.

(١٢) الأقصوصتان هما «شاعرٌ قبل الشق» الطليعة، العدد ٢ (سنة ١٩٣٩): ٢١٢ - ٢١٦؛ و«الرماد» الطليعة، العدد ٣ و٤ (سنة ١٩٣٩): ١٠٢ - ١٠٦. الأولى مستوحاة من قصيدة شعبية بعثها إلى رثيف ونظمها نائبر فلسطيني في السجن ينتظر حكم الشق. والثانية مسرحها قوية صوفند إثر احتلالها.

(١٣) المعلومات التي نسوقها حول هذه المجلة وكلام رثيف على صفحاتها مستقاة من مقال للدكتور أحمد علي نشرته جريدة النداء (متصفح أيلول، سنة ١٩٨٥) تحت عنوان «رثيف خوري وجريدته الدفاع».

(١٤) أنظر مصادر الدراسة ومراجعتها.

(١٥) نُشر هذا الكتيب في دار الطليعة، بيروت، سنة ١٩٤٨. ويستهلّه رثيف بمقدمات تناوَلت أسباب الثورة الروسية فإذا هي كامنة في الشرخ الاجتماعي الكبير بين الحكم الأوتوقراطي الفيصري من جهة، وجماهير الشعب الكادحة من جهة أخرى. ثم يعرض لتطوّر مراحل الثورة التي قادها لينين، ولمخططات «الدول الاستعمارية» التي جهدت لقبّر «أول دولة شعبية في التاريخ». ويرى أن الثورة كانت الحلّ الأسرع والأوفى بحق الشعب الروسي. ولا يقلل من قيمة هذا الاستنتاج - في رأي رثيف - ما اكتنّف بعض مراحل هذه الثورة من ممارسات بحق بعض قيادات الجيش ممن أسماهم «عدواً داخلياً»، كما أن ديكتاتورية البروليتاريا هي ديكتاتورية الشعب وسلطة الحزب الشيوعي هي سلطة الشعب، فليس هناك من سبب لاعتبار هذه السلطة - الديكتاتورية نقيضاً للديمقراطية السلمية.

(١٦) الثورة الروسية: ٦٥.

(١٧) راجع على سبيل المثال مقال: «غوركي الذي فقدته الإنسانية» (الطليعة، عدد ٦ و٧، سنة ١٩٣٦: ٦١٤ - ٦٢٢).

(١٨) حقوق الإنسان، منشورات مجلة الطليعة، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٨. وهو كتاب ساستعرض بعض أفكاره في الفصل القادم عند الكلام عن أثر الثورة الفرنسية في فكر رثيف.

(١٩) حقوق الإنسان: ٦٦.

(٢٠) المصدر السابق.

(٢١) رثيف خوري لا يُثار على استخدام مُصطلح «الشعوب العربية» الذي ذاب على استخدامه جماعة الحزب الشيوعي اللبناني وبعض الأحزاب الشيوعية العربية الأخرى. وسنلاحظ أن خوري كثيراً ما يستعمل مصطلح «الشعب العربي» وخاصة في «مرحلة مجلة الآداب» وهي مرحلة بروز الهمّ الوحدوي «القومي العربي التحرري» عنده.

(٢٢) «عمر فاخوري ومعنى الصداقة بين الشعوب» الآداب (١٩٥٣): ١٥ - ١٦. والكلام في الأصل لعمر فاخوري قاله في حفل استقبال قيادي شيوعي فرنسي حارب النازية هو جاك غريزا، إلا أن المقصود من كلام عمر لم يكن علاقة العرب بالاتحاد السوفياتي بل علاقتهم بـ «فرنسا الجديدة» (أنظر الحقيقة اللبنانية لفاخوري، دار المكشوف، ص ٦٨ - ٦٩).

(٢٣) للأمانة العلمية نُقرّر أن موقف الحزب الشيوعي اللبناني والسوري قد تقلّب فيما يخص هذا القرار قبل أن يعود الحزب الأول في مؤتمره الثاني عن «خطأ». ففي البيان المشترك للحزبين الذي نشرته صوت الشعب في ٢٢/٨/١٩٤٦ نقراً ما يلي:

إن الحكومة البريطانية عازمة على تحقيق ما يريها في فلسطين عن طريق تقسيم فلسطين، هذا المشروع الذي يعدّ وصمة عارٍ مُخجلة في جبين

كثير من المجلات العربية ذات الاتجاه السياسي المشابه في كون الآداب قد حافظت على استقلاليتها عن أي نظام عربي أو غير عربي. أما على الصعيد الأدبي، فقد أخذت الآداب على عاتقها، منذ صدور حركة الأدب الملتزم «الذي يتصادى مع مجتمعه» (إدريس: العدد الأول ١٩٥٣: ١)، ولعبت الدور الأبرز في مسيرة الشعر العربي الحديث؛ وفي حقل النقد الأدبي (لا سيما عبر باب: «قرأت العدد الماضي من الآداب» الذي كان يتصدى من خلاله نقاد أمثال نعيمه وعباس وخوري لمقالات العدد الفائت من الآداب)؛ وفي تبني «المواهب الشابة»؛ وفي نشرها للعديد من مسرحيات سارتر وكامو والتعريف بالفكر الوجودي. ولا تزال المجلة تصدر عن دار الآداب حتى اليوم.

(٢٩) هذا ما نستشفه على الأقل من حديثنا مع بعض مسؤولي الطريق وكتاب النداء القدامى. (راجع كذلك خلاصة حديث نسيب نمر مع مطانوس طوق: رثيف خوري، سيرته وأدبه: ١٦). كما أنه من الملاحظ أن الحزب الشيوعي اللبناني عمل بدأب على إعادة الاعتبار لرثيف، وقد توج هذا الاعتبار بإصدار كتاب ثورة الفتى العربي في إطار الاحتفالات بالذكرى الستين لنشوء الحزب. على أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن مختارات الكتاب المذكورة بقيت في إطار الصحافة الشيوعية ولم تتعدّها إلى التلغراف أو الجندى اللبناني أو الآداب مثلاً.

(٣٠) الثقافة الوطنية: تأسست سنة ١٩٥٢. صاحبها يوسف الحايك، والمدير المسؤول الياس شاهين، ومدير شؤون التحرير محمد دكروب. وقد كتب رثيف فيها خلال عامي ١٩٥٨ و١٩٥٩ مقالات في السياسة والأدب (راجع بعضاً منها في مصادر الدراسة).

(٣١) الأخبار: جريدة ناطقة باسم الحزب الشيوعي اللبناني، تأسست سنة ١٩٥٨ ورأس تحريرها أحد أعمدة الصحافة اللبنانية حتى اليوم الأستاذ يوسف خَطّار الحلو. وقد كتب فيها رثيف خوري سنتي ١٩٥٨ و١٩٦٢.

(٣٢) النداء: جريدة يومية أسسها عام ١٩٥٩ نخلة مطران. وهي، إلى اليوم، الجريدة الرسمية الناطقة بلسان الحزب الشيوعي اللبناني، وصاحبها الأمين العام الحالي للحزب جورج حاوي وعبدالكريم مروّة، ومديرها المسؤول طانوس دعبس.

(٣٣) الطريق: «رسالة ثقافية» أصدرتها عصبة مكافحة النازية والفاشية في سوريا ولبنان في ٢٠ كانون الأول سنة ١٩٤١، برئاسة تحرير قدرى

قلعجي، وإدارة عمر فاخوري وانطوان تاب و يوسف يزبك ورثيف خوري. ونظرة واحدة إلى الصورة على غلاف العدد الأول، مع لمحة خاطفة إلى شعار المجلة وعناوين هذا العدد، تبين لنا أهداف هذه المجلة: فعلى الغلاف نرى «إنساناً مفتول العضلات... يرفع في ساعديه الجبارين مطرقة هائلة يهوي بها على صليب النازية المعقوف المائل عند قدميه» (من وصف لأنطون تاب، الطريق ٢ و٣ - ١٩٥٢)؛ أما المقالات فتتضمن رسالة العصابة التي كتبها قلعجي في ضرورة دحر هتلر «لأن هذا الدحر انتصار مبين للقوى التقدمية التحريرية في جميع أنحاء العالم» ووجوب «المحافظة على تراثنا الثقافي وإحيائه وتعزيزه ليؤدي الفكر العربي الحُر الرسالة الإنسانية التي أداها دائماً في تاريخنا المجيد». كما تتضمن مقالاً لفاخوري (حجر الجرمية) ولرثيف (أفي النازية أخوة مبدئية؟). وقد كتب رثيف على صفحات الطريق مقالات كثيرة في الفلسفة والتاريخ والأدب (راجع مصادر الدراسة ومراجعتها). ولا تزال المجلة تصدر حتى اليوم برئاسة تحرير الأستاذ محمد دكروب، واشترك الدكتور حسين مروّة في التحرير، مجلة «فكرية سياسية» تصدر مرة كل شهرين، وتمثل - بشكل عام - الخطّ الفكري والسياسي للحزب الشيوعي اللبناني.

(٣٤) «الموت في سبيل الحياة» الآداب ١٢ (١٩٥٦): ٤، بمناسبة صد مصر للهجوم الإسرائيلي - البريطاني - الفرنسي المشترك.

(٣٥) «دروس من بور سعيد» الآداب ١٢ (١٩٥٧): ٣.

(٣٦) المصدر السابق: ٤.

(٣٧) المصدر السابق: ٤.

(٣٨) كان الهدف من هذه الزيارة إلقاء محاضرات كلّفها بها معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية.

(٣٩) «عائد إلى مصر» الآداب ٦ (١٩٥٧): ١ - ٣.

(٤٠) المصدر السابق: ٣.

(ظذ) «فراغ إيزنهاور» الآداب ٢ (١٩٥٧): ٥.

(٤٢) مصطلح «حرقة بورجوازية» لرثيف وهو الذي وضعه بين المزدوجين.

(٤٣) «دروس من بور سعيد» الآداب ١٢ (١٩٥٧): ٤.

(٤٤) ميشال سليمان: «رثيف خوري كاتباً سياسياً واجتماعياً» الآداب ١٢ (١٩٦٧): ١٠.

دار الآداب تقدم

دراسات إسلامية

سلسلة الإسلام الحضاري

● الإسلام والمجتمع المصري الدكتور صبحي الصالح	● إنسانية الإسلام (مجلد) ترجمة د. عفيف دمشقية	الطبعة الثانية
● كيف نفهم الإسلام ترجمة د. عفيف دمشقية	● ثورة العبيد في الإسلام د. أحمد علي	الطبعة الثانية
● ١٠ ثورات في الإسلام د. علي حسني الخربوطلي	● فلسفة الإسلام في الإنسان د. علي عيسى عثمان	الطبعة الثالثة